العثمانيون المفترى عليهم

- هل يمكن ان تحافظ دولة على كيانها طوال ٦ قرون وهي بغير حضارة ؟
- قصور العثمانيين عرفت «الحرم» اما «الحريم» فهى قصة ابتدعها الاوربيون
- حتى عام ١٧٠٠ ملك العثمانيون اقوى مدفعية والطوبخانة كان يحملها ١٢٠٠٠ جمل !
- لماذا لا نحاول فهم حضارة العثمانيين من وثائقهم قبل القاء الاتهامات جزافا ؟

دعا الدكتور احمد عبد الرحيم مصطفى استاذ التاريخ بجامعة الكويت الى ضرورة اعادة تقييم الحكم العثماني فى العدد ٢٣٥ من العربي . ورد عليه الدكتور نور الدين حاطوم ـ استاذ التاريخ أيضا بالجامعة ذاتها ـ بمقال تضمن عدة ملاحظات على سنوات الحكم العثمانى للعالم العربى .

وهذه الدراسة بمثابة استجابة لدعوة الدكتور عبد الرحيم مصطفى ورد على رد الدكتور حاطوم وقد كتبها للعربى احد الباحثين المتخصصين فى التاريخ العثمانى ، وهو الاستاذ محمد حرب ، الذى كان اول من قدم مذكرات السلطان عبد الحميد باللغة العربية .

فهم العثمانيين
مدخل الى اعادة تقويم الحكم العثماني

ان الطريق الى تقييم الحكم العثماني يبدأ بخطوة هامة وطبيعية هي :

محاولة فهم العثمانيين . ولكي تنجح هذه المحاولة وتحقق اهدافها ، فينبغى أن تتوفر للباحث ثلاثة عناصر هي :

- أولا : نشر وثائق الدولة العثمانية : وهذه مكتوبة بلغات عديدة أهمها التركية والعربية

واللاتينية . هذه الوثائق محفوظة فى دورحكومية خاصة ممتدة فى أوربا وافريقيا . فى أوربا : فى بلغراد وبوسنه سرايي وبودابست وفينا وصوفيا واستانبول . وفى اسيا : البصرة وبغداد ودمشق وفى افريقيا : القاهرة وطرابلس الغرب وتونس والجزائر. وقد عددتهنادور المحفوظاتالرئيسية فقط . وربما يكون هناك دور محفوظات أو وثائق عثمانية فى منطقة القرن الافريقى حيث كانت تحكم الدولة العثمانية ، وقد يكون هناك أيضا مثل ذلك فىصنعاء أو عدن أو الحجاز مما لا نعرفه. اذكر بهذه المناسبة ان دور المحفوظات فىاستانبول وحدها تضم (١٥٠) مائة وخمسين مليونوثيقة، لم يدرس بل لم يصنف منها الا عدد لا يفصح عن نفسه خجلا . وقس على ذلك كل هذه الدور المذكورة . لا ننسى فى هذا الخصوص الاقسام الخاصة بالوثائق العثمانية فى دور المحفوظات فى مختلف انحاء العالم : موسكو ولندن وباريس وغيرها .

● ثانيا ـ نشر المخطوطات : وهذه منها ما هو عام يفيد فى الكشف عن تاريخ منطقة كبيرة الساحة تحوى وحدات ادارية عثمانية فىداخلها اذكر على سبيل المثال : رحلة الطبيب العثماني قول اغاسى « عبد الحكيم » وهي رحلة رسمية استهدفت تقديم تقرير عنالحالة الطبيةوالصحية فى منطقة الخليج والجزيرة العربية بما فى ذلك اليمن وايضا فى طرابلس الغرب وبنغازى . وكانت فى أواخر العهد العثمانى فى البلاد العربية. ومنها ايضا « سليم نامه لر » المكملة والمتممة بل والمصححة لابن اياس ، وهي تقدم فهما هاما لتاريخ حملة سليم الاول على الشام ومصروالحجاز ثم « غزوات نامه لر » التى تساعد مساعدة فعالة فى الكشف عن تاريخ منطقةالخليج والجزيرة العربية .

يدخل فى نطاق هذه الفقرة رحلات الضباط العثمانيين فى السودان واليمن والحجاز وليبيا. وتقارير هيئة اركان حرب الجيش العثماني عن الوضع السكاني والقدرات العسكرية لدى الشعوب بل والقبائل العربية فى مختلف أرجاء الولايات العربية . وتقارير المخابرات العثمانية عن بعض المسائل الهامة فى البلاد العربية مثل التقرير السرى الذى كتبه الضابط العثماني يوزكاشي اركان حرب على عن حركة احمد عرابى باشا ، وكان على قد دخل مصر سرا أثناء بدايات الغزو الانكليزى . والتقارير العسكرية الادارية مثل تقرير محمد امين سامي باشا عن مشكلة تقسيم اليمن الى قسمين ، ثم تقارير وزارة الخارجية العثمانية عن المشكلات بينها وبين وزارات خارجية الدول الاوربية حول المناطق العربية مثل تقرير الخارجية العثمانية عن البحرين ، وغير ذلك الكثير .

ومن هذه المخطوطات ما يختص باحداث معينة لمنطقة عربية محدودة : مثل تاريخ عبد الكريم ابن عبد الرحمن عن مصر العثمانية وتاريخ سفر البصرة وتاريخ سفر نهر ذياب وتاريخ عزت ، ذلك التاريخ المكمل لتاريخ الجبرتي والمصحح لمعلوماته .

● ثالثا : نشر القوانين العثمانية للبلادالعربية مثل : قانون نامه مصر ، قانون نامه بغداد ، قانون نامه طرابلس الغرب ، اقول أيضا فى هذا الصدد ان الحديث عن « اثقال العثمانيين » للعرب « بالضرائب » لا ينبغي ان يكون قبل نشر هذه القوانين ومتابعة تطبيقاتها من خلال الوثائق . ففي نشر هذه القوانين القاء الضوء الساطعالذى يكشف التاريخ الاقتصادى العربى فى العهد العثماني ، كما من شانه أن يحقق النتيجة ذاتها بالنسبة لدقة العثمانيين فى اهتمامهم بالنظم العدلية وبالتقنين .

أقول ما دامت هذه الامور ما زالت مجهولة، فان اثارة دعوة تقييم « الحكم العثمانى » لابد وان تكون صعبة الى درجة يفطن اليها كل ذى ادراك تاريخى ، بل وحتى المثقف العادى .

وما دمت ارى هذا ، فانى ارى ايضا اننتجه بالتالي ـ كخطوة اولى على درب دعوة الدكتور عبد الرحيم مصطفى من فتح ملف الدولةالعثمانية ـ الى فهم العثمانيين تشكيلا ونظما وحضارة والى فهم طبيعة العثمانيين ، مراعين المدة الزمنية التى تحدث عنها الدكتور نور الدين حاطوم .

فلنر ماذا يقول الدكتور نور الدين حاطوم عن الحضارة العثمانية .

طبيعة الدولة العثمانية

يقول الدكتور حاطوم : «ولكن ما هي الحضارة التى كان عليها العثمانيون ايام الفتح ؟ لا شىء وفاقد الشىء لا يعطيه . لم يكن للترك دينخاص

ولا حضارة خاصة . وكل ما عندهم لغتهم التركية وقد أخذوا عن العرب الدين الاسلامى والكتابة العربية وتركوا العرب وشانهم بعد أن اثقلوهم بالضرائب من كل نوع وحكموهم حكما عسكريا » (العربي ، العدد ٢٣٥ ، ص ٥٧ / ١)

لن اناقش مسالة خصوصية الدين لقوم ، ولا اخذ الترك الحروف العربية عن العرب ، ولا عن الضرائب ، فالضرائب فى العهد العثمانى مقسمة شرعيا وعرفيا ، منها ما هو ثابت ومنها ما هو مؤقت ينتهى بزوال سببه (انظر فقرة القوانين العثمانية من هذا المقال) ، (قارن بين النظام الضريبى فى الدولة المملوكية وتطبيقاته فى مصر وشدته فى ابن اياس وغيره وبين النظام الضريبى العثمانى وتطبيقاته فى مصر فى « قانون نامه لر » ، والعدالة العثمانية فى البكرى والاسحاقي على سبيل المثال)

لنترك الحديث عن هذا ، فتلك مسائل طويلة ليس هنا مجالها ونقتصر على الحضارة العثمانية حتى أيام الفتح (بقصد الدكتور حاطوم الفتح العثمانى للبلاد العربية)

لنتخذ لذلك حدا تاريخيا هو مقتل الغورى فى مرج دابق ثم دفن العثمانيين لراسه التي عثروا عليها عقب المعركة ــ امام حلب بناء على امر سليم .

وطبيعة الدولة العثمانية ــ كما يعرفها المؤرخون ــ « عسكرية ــ جهادية ، فقد بدات امارة ثغر ثم تحولت الى سلطنة ثم الى خلافة وسلطنة ». لقد بدأ التاريخ العثمانى فى الربع الاول من القرن الثالث عشر الميلادى . كانت تسود العالم كله وقتئذ رهبة وذعر من الامبراطورية المغولية التى اقامها جنكيز خان ، وكان هذا قد استولى على شمال الصين ثم بدأ زحفه نحو تركستان . كلنا نعرف انه لم تكن هناك قوة بشرية آنذاك تستطيع الوقوف امام جحافل جنكيزخان .

كان هؤلاء المغول على دين الشامانية . وكان سكان تركستان اتراكا مسلمين فى ذلك الوقت. كان يسكن فى منطقة جنوب صحراء قره قورم فى آسيا الوسطى ما يقرب من ٧٠,٠٠٠ خيمة بدوية يسكنها حوالي نصف مليون مسلم تركى . ضم هذا الجمع البشرى عشيرة تسمى « قابي » هربت كل هذه الكتل البشرية من مواطنها خوفا من الزحف المغولى . وكذلك فعلت عشيرة «قابى» التى اتجهت نحو الاناضول . كانت عدتها ٤٠٠ خيمة يسكنها حوالى ٤٠٠٠ شخص . وفى الاناضول ساعدت هذه العشيرة السلطان السلجوقى علاء الدين حاكم قونيه فى احدى معاركه مع خوارزم شاه جلال الدين . فاقطع علاءالدين العشيرة قطعة صغيرة من الارض على حدوده مع بيزنطه (ثغر فى الاصطلاح التاريخى الاسلامى) . وكان الرئيس الثالث لهذه العشيرة وهى فى مكانها الجديد بآسيا الصغرى هو الامير فخر الدين عثمان الذى سميت الدولة العثمانية باسمه .

يقدر المؤرخون مساحة الثغر الذى اهداه السلطان السلجوقى لعشيرة قابي بنحو يتراوح بين ١٠٠٠ ــ ٢٠٠٠ كم تقع فى ملتقى ولايات اسكيشهر مع ببله جك وكوتاهيه فى تركيا اليوم.

وكانت امارة الثغر هذه بحكم الموقف التاريخى والموقع الجغرافى عسكرية ــ جهادية كما قلنا ، وعليه فقد استطاع الامير عثمان ان يوسع ثغرة على حساب القوى البيزنطية الى مساحة تقدر بـ ١٦,٠٠٠ كم ، ولم يكن عثمان مستقلا ، فثغره تابع لقونية ، وقونيه كانت تابعة لتبريز ، وتبريز كانت تابعة لبكين حيث كان يحكم قوبيلاى خان حفيد جنكيزخان .

ثم تولى اورخان بن عثمان الذى أرسى دعائم حضارة عثمانية استمدت عناصرها من التراث السلجوقي وحضارة السلاجقة ، والسلاجقة ، كما نعرف اتراك مسلمون . فتح اورخان ازنيق (كانت هذه المدينة قبل ذلك مركزا علميا مسيحيا يلي استانبول ــ وكانت بيزنطية وقتها ــ مباشرة فى المكانة الدينية والعلمية المسيحية) فانشا بها جامعة اسلامية كبيرة ، وفى عهده تم تكوين جيش نظامي لا عمل له الا الحرب وبدأ الطرز المعمارى العثمانى فى الظهور وتم ترتيب الديوان الذى يساعد الحاكم فى تصريف امور الرعية (انظر لاروس ماده اورخان غازى ، الطبعة التركية ــ ومحمد فريد تاريخ الدولة العلية العثمانية) .

بعد أورخان تولى مراد الاول فاتح صوفيا (عاصمة بلغاريا اليوم) فاعلنته الكنيسة « عدوا لعيسى » وعليه فقد اتحدت ضده كل الجيوش الاوربية ، ومات مراد هذا فى الحرب . وترك لابنه بايزيد امارة مساحتها ٥٠٠,٠٠٠ كم ٢

(انظر الموسوعة التركية ، مادة الامبراطورية العثمانية) .

بايزيد الصاعقة

قلت ان طبيعة امارة الثغر العثمانية عسكرية ـ جهادية « طورت مساحتها خلال ١٠٨ سنوات وفي عهد ٣ من امرائها من ١٠٠٠ كم ٢ الى ٥٠٠ر٠٠٠ كم ٢ . واقصد بذلك الدلالة على سرعة الانتشار مع الصمود في وجه اوربا المتحدة فيما سمي في الاصطلاح العثماني (خاجلي سفر لر) اي الحروب الصليبية .

الى أن جاء بايزيد الصاعقة الذى نعرفه نحن العرب باسم بايزيد الاول ـ وهو بايزيد الذى اسهب فيما بعد في وصف اهتمامه بالنظم العدلية وتطبيقاتها المؤرخ البكرى ـ واستطاع بايزيد عن طريق السلطان برقوق المملوكي ان يحصل من الخليفة العباسي في القاهرة على لقب سلطان فاصبحت الامارة العثمانية سلطنة ، رسميا ، وكان هذا كما يقول المؤرخ التركي شهاب الدين تكين داغ « تتويجا شرعيا لواقع العثمانيين » .

ثم جاء تيمورلنك وحارب بايزيد في واقعة أنقره (٢٨ يوليو ١٤٠٢م) وهزم بايزيد بل واسر ثم مات في الاسر من اسر من اولاده وهرب من هرب ، ثم ادعى كل من اولاده السلطنة لنفسه وحارب كل منهم الاخر الى ان انتصر محمد جلبي (الاول) وبدأ يجمع شمل دولة انفرط عقدها واستقلت كل ادارة فيها عنها .

حارب محمد الاول الجميع وانتصر ، وبدأت عملية توحيد اجزاء السلطنة ، وما ان استغرقت هذه العملية قليلا حتى قامت ثورة الشيخ بدر الدين بن قاضي سماونه المشهورة ، وهي ثورة باطنية قامت بتأييد أمير جنوب رومانيا المعادى للعثمانيين . وكان للشيخ بدر الدين مساعدان قويان احدهما مسلم وهو بيرقليجه مصطفى والآخر يهودى وهو طورلاق كمال . وكانت الثورة قوية حتى خيف على الدولة منها ، لكن محمدا انتصر ، وعادت الدولة العثمانية على مساحة تقدر ب ٨٦٠ر٠٠٠كم٢ بعد أن لم تكن .

محمد الاول هذا يعرفه التاريخ العربي بانه أول سلطان عثماني يرسل الصرة الى الحجاز ، والصرة هدية نقدية سنوية اعتاد سلاطين آل عثمان ارسالها الى الحجاز لتوزع على اهالي مكة والمدينة .

ثم تولى مراد الثاني الذى حاصر بلغراد ستة اشهر كاملة (فتحها العثمانيون بعد ذلك عام ١٥٢١م) وبعده تولى محمد الثانى الذى نعرفه باسم الفاتح والذى بدأ به ـ في العرف التاريخي الدولي ـ العصر الحديث . ثم بايزيد الثاني ـ الذى كان معاصرا لمحنة المسلمين في الاندلس ـ ثم سليم الاول الفاتح العثماني للبلاد العربية ، والذى أصبح أول خليفة عثماني ، وبذلك اصبحت الدولة العثمانية خلافة وسلطنة .

وعندما مات سليم الاول بعد حكم قصير دام حوالى تسع سنوات كانت مساحة دولة الخلافة العثمانية قد بلغت ٦٫٥٥٧٫٠٠٠ كم٢ موزعة كالآتي : في اوروبا ١٫٧٠٢٫٠٠٠ كم٢ ، وفي آسيا ١٫٩٠٥٫٠٠٠ كم٢ وفي افريقيا ٢٫٩٥٠٫٠٠٠ كم٢ (انظر تاريخ تركيا ، الجزء الخامس) .

وخطب لسليم الاول في جوامع دمشق والقاهرة باعتباره خليفة وضربت النقود باسمه باعتباره سلطانا . (انظر سليمنامه لر ومقالة شهاب الدين تكين داغ التي تحمل نفس الاسم) .

وتولى سليمان بن سليم المعروف بسليمان القانوني (لاحظ ما في اللقب من دلالة حضارية). وتعاقب من بعده السلاطين والخلفاء الى آن انتهت الدولة العثمانية وقامت على انقاضها دول عديدة منها : تركيا والبلاد العربية ودول البلقان والقرن الافريقي .

لقد قامت امارة الثغر العثمانية (المستقلة) عام ١٢٩٩ م وانتهت « السلطنة » عام ١٩٢٢ م ، وبدأت الخلافة العثمانية عام ١٥١٧ م وانتهت عام ١٩٢٤ م .

وهنا يعنى ان العثمانيين استطاعوا ان يحافظوا على وجودهم طوال ستة قرون وربع قرن . فهل يعقل أن تحافظ دولة على كيانها كل هذه المدة اذا لم تكن ذات حضارة ؟ .

محمد الفاتح



قصور العثمانيين والاوروبيين

يقول المؤرخ الفرنسي رين جروسيه وهو واحد من اكبر مؤرخي آسيا ، فى كتابه « وجه آسيا » الذى صدر فى باريس عام ١٩٥٥ م : « أن عملية تصفية الامبراطورية الاسبانية بدأت بموت فيليب الثاني عام ١٥٩٨ م ، وانتهت بمعاهدة اوترخ عام ١٧١٣ م أى خلال قرن من الزمان . اما تصفية الامبراطورية العثمـــانية فقد بدأت بمعاهـدة كارلو فجه عام ١٦٩٩ م وانتهت عام ١٩٢٠ م أى خلال ٢٢٠ سنة » أى بعد قرنين وربع تقريبا . ونشر لورد كيزوس فى مجلة Books and Bookmen عـام ١٩٧٣ م ما ترجمتـه : « آن الامبراطورية العثمانية كانت فى ضخامة الامبراطورية الرومانيه حيث كانت تساويها تقريبا من حيث المساحة ، لكن الامبراطورية العثمانية حافظت على وجودها فى ضـعف المدة التي احتاجتهـــا الامبراطورية الرومانية فى هذا الشأن » .

ناخذ قصر طوب قابو كمثال على قضية بذخ السلاطين العثمانيين ، فهذا القصر هو رمز الحكم العثماني ومركز حكم الامبراطورية العثمانية . والزائر له يدهش من بســـاطته فهو مقام على مساحة ٦٩٩،٠٠٠ م٢ (٧ر. كم٢) وقد أسس ليسع ٤٠،٠٠٠ شخص بما فى ذلك مدارس القصر السلطاني التي تعد العلماء والضـــباط والخبراء العسكريين وبعض فرق الجيش والحرم (والحرم يعني المحرم وهم ما لا ينبغي لاجنبي ان يراه أى زوجة السلطان وبناتـه حيث تقـــوم الخادمات بخدمتهن ، أما الحريم كما تصـوره المصـــادر الاوروبية جيدة الخيال فلم يعرفه سلاطين هذه الدولة) . طوب قابي أو طـوب قابو (ويكتب بالشكلين) ليس بمبنى فخم من قطعة واحدة كما هي القصور الملكيـــة فى أوربا ، لأنه عبـارة عن اجنحة واروقة بسيطة احفل ما فيها مكتبة القصر المشهورة الآندوليا بمخطوطاتها العربيةوالفارسية النادرة القيمة . وليس فى قصور العثمانيين ما يضارع قصر ملك اوربي فى حينه ، وتواضع قصر يلديز امام قصر أى امير اوربي معاصر له : له دلالته ايضا فى هذا الامر .

جامعة لكبار الموظفين

ينقل الدكتور حاطـوم عن مولتكه ما نصــه (والنص للدكتور حاطوم) : « ان التركي الذى يعرف القراءة والكتابة يعتبر عالما ... حتى ان كبار الموظفين كانـــوا يطلبون الى آخــرين قراءة الرسائل الموجهة اليهم ... » (العربي عدد ٢٢٥ ص ٢/٥٧) .

هذا يدفعنا الى معرفة طريقة اعداد كبار موظفي الدولة العثمانية . قبل الفتح ، وليســمح لي الدكتور حاطوم ان اضرب أمثلة فيما بعد الفتح ايضا لأن مولتكه (كونت فون مولتكه ١٨٠٠ ـ ١٨٩١) كان مستشارا عسكريا فى استانبول من ١٨٣٥ م الى ١٨٣٩ م .

كان القصر الهمايونى (السلطاني) ينقسم الى ثلاثة اقسام : ١) الحرم : يعني عائلة السلطان وخادماتها وهو جزء مستقل . ٢) بيرون همايون ٣) اندرون همايون .

اندرون همايون ، عبارة عن جامعة خاصة داخل القصر ، ظلت اربعة قرون كمدرسة فنيـــة تمد الدولة العثمانية بكبار الموظفين من العســكريين ومدنيين ، بل حتى ما يسمى اليوم بالفنانين ، اذ كان بالقصر فى وقت عمليـــة تغريب الدولة مدرسة موسيقية كبيرة تضارع دور الكونسرفتوار فى البلاد الاوربية اليوم نظاما ودراسة .

وفى هذه المدرسة (مدرسة فى الاصطلاح العثماني تعني الجامعة ، بتعبير هذا الزمان) كان يؤتى بشبان اكثرهم من المدارس الســـلطانية حيث يعدون اعدادا عسكريا تربويا مع منحهم رتبـــة الضباط وبمرتب مجز . كانوا يدربون فى القصر على ادارة الدولة من ناحية ويتلقون دراســات خاصة فى العلوم العسكرية والمواد العلمية والدينية ويتدربون على السباحة والرماية والفروسية . وكانت اللغة العربية فى هذه المدرسة لغة حضارية اذا رسب الطالب الضابط فيها يرسب تماما . اما أعلى مراحل هذه « المدرسة » تسمى (خاص اوده) يعني الغرفة الخاصة ولم يكن يقبل بهـــا أكثر من (٤٠) طالبا فقط هم الصـفوة حيث يعدون للمناصب الاكبر فى الدولة . مديرها ضابط برتبة وزير (مارشال) . وكان كل طالب من الغرفة الخاصة يتم تقديمه للسلطان شخصيا . وظلت هذه « المدرسة » معمولا بهـــا حتى عهـد السلطان محمود الثاني عام ١٨٣٣ عندما تم تبني الطريقة الاوربية فى اعداد الوزراء ، ومع ذلك فقد كان كل الضـــباط الكبار والموظفين الكبـــار فى الدولة ، وحتى انهيار الدولة ، على درجة عالية

من المعرفة والثقافة وكان فيهم كثرة ملحوظة من العلماء .

أحمد جودت باشا (١٨٢٢م ـ ١٨٩٥م) وزير العدل وصاحب تاريخ جودت والتى اقترنت باسمه « مجلة الاحكام العدلية » وهى معروفة في تاريخ التشريع الاسلامى . الغازى احمد مختار باشا (١٨٣٩م ـ ١٩١٩م) الذى عمل صدرا أعظم ومندوبا فوق العادة فى مصر عام ١٨٩٢ م صاحب كتاب رياض المختار ، مرآت الميقات والادوار الذى طبع فى مصر عام ١٨٨٦ م وكتاب اصلاحات تقويم وطبع ايضا فى مصر عام ١٨٩٠ وسرائر القرآن الذى وطبع أيضا فى مصر عام ١٨٩٠ وسرائر القرآن الذى باشا التونسي (١٨٢١ م) ذلك العبد الرقيق الذى اصبح الصدر الاعظم في عهد السلطان عبد الحميد الثانى عام ١٨٧٨ م وصاحب « أقوم المسالك فى معرفة احوال المماليك » واسماعيل باشا (وفاته عام ١٩٢٠ م) صاحب الذيل على كشف الظنون والذى سماه « ايضاح المكنون فى ذيل كشف الظنون » .

فوق ١٢ ألف جمل

وبما ان الدولة العثمانية دولة « عسكرية ـ جهادية » فلا بد ان يبدأ حديثنا فى هذه النقطة بالجانب العسكرى .

حتى عام ١٧٠٠ م ، كانت المدفعية العثمانية اقوى مدفعية فى العالم . فقد كان اعداد المدفعيين يتم باعداد متين الجذور . فى عهد الفاتح (١٤٣٢ ـ ١٤٨١ م) كانت الطوبخانة المتحركة (يعنى مصنع المدافع المتحرك) تنقل على ١٢٠٠٠ جمل وتتحرك من استانبول حتى البانيا ، ثم تقف امام مدينة مثل اشقودرة لكى تصب مدافع الحصار الثقيلة . ومدافع فتح القسطنطينية لا تحتاج الى الحديث عنها كتكنولوجيا متقدمة فى ذلك الوقت . وكان هذا فى القرن الخامس عشر .

اما مدافع الهاون فقد استخدمت لاول مرة فى التاريخ فى عهد الفاتح ايضا .

وكان السلطان سليم الاول ، هو اول من استخدام المدافع غير ثابتة الاتجاه والتى يمكن تحريكها بيسر . وكان ذلك في اوائل القرن السادس عشر الميلادى مظهرا لدقة الاختراع العلمى والقدرة على استخدام التكنولوجيا الحديثة ـ بالنسبة لزمنه ـ وكانت القوات العثمانية قد انتصرت على القوات المملوكية في معركة الريدانية ، رهزمت المدفعية المملوكية الثقيلة الثابتة الاتجاه والوضع. كان لدى القوات المملوكية المدافع الضخمة التى كان يستخدمها بجانب المماليك خبراء جاءوا خصيصا لذلك من أوربا . وهذا ثابت فى سليمنامه لر .

اما عن الاسطول العثمانى ، فقد كان حتى عام ١٨٦٨ م هو الاسطول الثالث فى العالم قوة بعد الاسطولين الانكليزى ثم الفرنسي . وتشهد ترسانة السويس على دقة التنظيم العثمانى فى تنظيم اعداد الاسطول وسرعة تحركه من السويس الى مختلف الاماكن خاصة ما تحدثنا به وثيقة هى فرمان لوالى مصر بسرعة ارسال الاسطول لانقاذ « الاهالى المسلمين » فى « البحرين » الواقعة فى بصره كورفزى (خليج البصرة ـ الخليج العربى) عام ٩٨١هـ ١٥ جمادى الآخر من « الكفار » أى البرتغاليين الذين عاثوا فسادا هناك (انظر : دار محفوظات رئاسة الوزراء ، ديوان همايون مهمة دفترى رقم ٢٣ ص ٦٤ حكم ١٣٤ وجنكيزاورخونلو حبش ايالة) .

بمناسبة التنظيم الحضارى العثمانى بقول الجنرال النمسوى كونت فارسكلى وهو القائد الذى امضي حياته كلها فى محاربة العثمانيين . يقول عن التنظيم العثمانى ما يلى : « وصل التنظيم الاقتصادى العثمانى الى درجة عالية بحيث لم يكن يعادلها نظير فى الحكومات المسيحية . من الممكن ايجاد موانع شتى فى القوانين العثمانية والنظم الاقتصادية التركية تمنع الاستغلال وتشجب كافة المساوىء » .

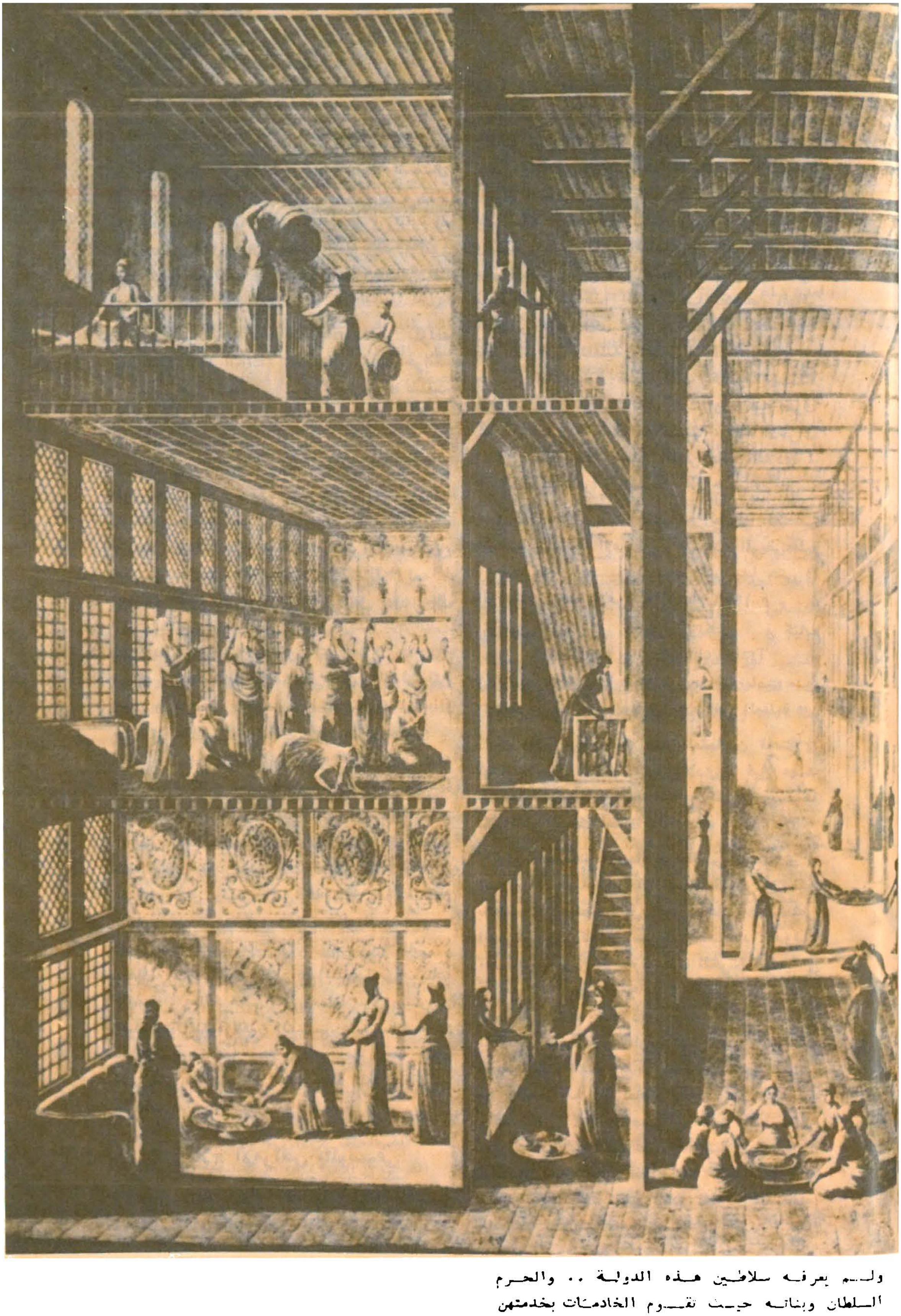
وعن دقة تنظيم الطرق البرية العثمانية ووفرة الخدمات بها يثنى هذا القائد على العثمانيين ، كما يمضي قائلا : « من اسباب القدرة على الحركة العسكرية الموفقة للجيش العثمانى هو جودة الاطعمة والعناية بالحيوانات، وهذه كلها اكثر دقة مما هى عليها عندنا ، واكثر جودة في التنظيم .. »

واذكر هنا الاستحكامات العسكرية وبراعة العثمانيين فيها ، وقد بلغت متانتها ان الثوار ما زالوا يستخدمون الاستحكامات والقلاع العثمانية الموجودة في اوجادين فى حربهم ضد اثيوبيا . وهذه متبقية من العهد العثمانى بالصومال .

وفى الجغرافيا العثمانية : اذكر بيرى رئيس القائد البحرى العثمانى الذى ظهر فى اوائل القرن السادس عشر كمثال للجغرافية فى الحضارة



الحريم كما تصوره المصادر الاوروبية جيدة الخيال ..
يعنى المحرم او ما لا ينبغي لاجنبى ان يراه اى زوجـــة



ولم يعرفه سلاطين هذه الدولة .. والحرم

السلطان وبناته حيث تقوم الخادمات بخدمتهن

العثمانية. وقد كتب بيرى رئيس عن كروية الارض قبل رحلة ماجلان . ورسم خرائط لامريكا مع سواحل غرب افريقيا . رسم خرائط لشمال افريقية وسواحل البحر المتوسط الاخرى ، واتم ذلك بدقة قال عنها لاروش الفرنسي في كتاب له صدر عام ١٩٦٣م : ان هذا أمر يعلو ويفوق كثيرا على علم الجغرافيا في ذلك القرن وعلى علم الجغرافيا لدى الغربيين » .

في كتاب Chariots of the god لمؤلفه Erich Von Daniken حديث شيق عن خرائط القائد البحرى العثماني بيرى رئيس : « سلمت خرائط بيرى رئيس في السنه الجيوفيزيقية ١٩٥٧ الى الراهب الجزويتي لينهام المشرف على دار الارصاد في ويستون ورسام الخرائط في اسطول الولايات المتحدة الامريكية . وقام لينهام بدراسات دقيقة لهذه الخرائط ثم اعلن انه وجدها صحيحة بدرجة مذهلة للعقل ، خاصة انها تظهر بوضوح اماكن لم تكن قد اكتشفت حتى تلك الايام . اما الجانب المذهل في هذا الموضوع هو ظهور جبال انتاركتيكا التي تظهر بكل تفصيل في هذه الخرائط، ذلك لان هذه الجبال لم يمكن اكتشافها الا بالاجهزة العاكسة للصوت عام ١٩٥٢ . قبل ذلك لم يكن احد يعرف انها موجودة وكانت انتاركتيكا مغطاة بالثلوج طوال عصور التاريخ » . ملحوظة : انتاركتيكا هى القارة السادسة التي تقع في نصف الكرة الارضية الجنوبى ومساحتها ٦٣٧ر٧٠١ر١٤ كم٢) .

نفس الكتاب يستطرد في الحديث عن الموضوع ذاته فيقول : « قدمت لنا الدراسات الاخيرة عن خرائط بيرى رئيس التي قام بها البروفيسور تشارلز هـ . هابكود وعالم الرياضيات و . استراشان ، معلومات رائعة تحبس الانفاس : بمقارنة صور الارض التي تم التقاطها من مركبات الفضاء ، وبالخرائط التي رسمها بيرى رئيس في البدايات المبكرة للقرن السادس عشر ، اتضح ان بين الاثنتين تشابها مذهلا . لقد توصل رجال العلم الى نفس نتائج صور اصول هذه الخرائط التي التقطت من ذلك الارتفاع الشاهق » .

وعلاج الامراض بالموسيقى

اما في ساحة العلوم : فتشهد كتب شرف الدين الصابونجي الاماسي وهو جراح عثماني عاش في عهد الفاتح بعلو مركزه في دراسة الادوات الجراحية. ولدينا داود الانطاكي بدراساته في المخ ، واخي جلبي وابحاثه في المسالك البولية ، وعياشلي شعبان افندى (افندى كانت تطلق على العلميين) بدراساته في امراض النساء والولادة والاطفال . وانشاء المجمع الطبى العثماني في القرن الخامس عشر الميلادى دليل على اهتمام الحضارة العثمانية بالعلوم . وفي هذا القرن ايضا يخصص العالم العثماني مؤمن السينوبي في كتابه في الطب ٢٥ بابا للامراض العقلية والنفسية والعصبية ، بل خصص العثمانيون مستشفيات خاصة لهذه الامراض ، في الوقت الذى كانت اوربا فيه تحرق المريض عقليا او نفسيا أو عصبيا ، ذلك الاحراق الذى استمر حتى القرن الثامن عشر الميلادى ، وذلك بحجة اخراج الشيطان من جسم المريض .

في ذلك الوقت ايضا استخدم الطبيب العثماني الموسيقى لمعالجة الامراض . أن علاج المريض عقليا او انفسيا او عصبيا بالموسيقى لم يبدأ حتى في الولايات المتحدة الامريكية الا عام ١٩٥٦ م .

يقول الدكتور Kraft-Ebing في كتابه Traite clinique de psychiatrie (باريس ١٨٩٧) : « ان اوروبا قد تعلمت من العثمانيين معالجة المصابين بالامراض العقلية ».

ان اول كلية للطب عند العثمانيين قامت في اواخر القرن الرابع عشر الميلادى ، قبل عهد النهضة العثمانية في عهد الفاتح بكثير ، وسموها بل اطلقوا عليها لفظة « دار الطب » .

وعن الخدمات الاجماعية كمظهر حضارى في الدولة العثمانية نقول ان الدولة لم تكن متكفلة بالخدمات الاجتماعية بل كانت تدخل في اختصاص الوقف وكان ركنا اساسيا في اقتصاد الدولة العثمانية . وعن طريقه نشطت الحركة العلمية في جوامع استانبول (الجامع في النظام العثماني معماريا واداريا وحدة دينية وعلمية متكاملة فيها الجامع والمدرسة والمدارس الاقل من المدرسة الجامعة ـ والمكتبة ومدينة الطلاب والمطعم الخاص بهم والمطعم الخيري العام والحمام ومدرسة الطب والمستشفى ..) كان صقوللي محمد باشا ـ على سبيل المثال ـ ينفق على الحركة العلمية في استانبول من دخل وقف ٢٠٠٠ قرية عثمانية في تشيكوسلوفاكيا (وكانت تابعة للدولة العثمانية) واسعد افندى قاضي عسكر الروملي (يعني

البلقان) اوقف وقفين كبيرين على تجهيز الفتيات المعدمات اللاتي يصلان الى سن الزواج . وكان لدى العثمانيين اوقات كثيرة ومتعددة . مثال آخر كانت هناك اوقاف خاصة بصرف مرتبات للعائلات المعوزة ـ غير الاكل ـ لان للاكل المجانى اوقافا عامة اخرى تسمى (عمارت وقفى) اى وقف المطاعم الخيرية . وكانت الـ (عمارت) تقدم اكلا مجانيا لعدد يبلغ ٣٠.٠٠٠ شخص يوميا مجانا ، كان مثل هذا فى كل الولايات .

(عمارت) السليمانية أى المطعم الخيري الملحق بجامع السليمانية . بلغت ميزانيته عام ١٥٨٦ م ما يعادل (١٠) عشرة ملايين دولار امريكي الا قليلا (مايعادل ٢٣٨ مليون ليرة تركية) . انوقفية السليمانية دليل على عظمة حضارة العثمانيين .

وبالطبع كان رصف الطرق و (كروان سرابي) أى الفنادق المقامة على الطرق البرية فى كل ارجاء الامبراطورية العثمانية بما فى ذلك المأكل والمشرب والمبيت كان مجانا يصرف عليه مـن الاوقاف .

تلك لمحة عن الحضارة العثمانية حتى أيام الفتح العثماني للشام يعني من عام ١٢٩٩ م الى عـام ١٥١٦ م . مع امثلـة طفيفة عامـة . وحيث ان الدكتور نور الدين حاطوم قد اراد الوقوف عنـد هذا الحد عندما ذكر .. ايام الفتح « فسأقف عند هذا الحد ولا اتجاوزه . وان كان لى تعليق طفيف عـام .

عن نقل الفنيين المصريين

بعد ذلك ـ أى بعد الفتح ـ سيطر الفكرالعربي على مسار الدولة العثمانية . اصبحت استانبول هي مركز الثقل في الدولة بشكلها الجديد فانتقلت ـ بعد الفتح ـ مجموعات من العلماء والمتخصصين في الميادين المختلفة الى استانبول .

لابد ان يخطر ببال القارىء ان سايما الاول نقل المعماريين المصريين والبنائين المصريين اصحـاب الخبرة الى استانبول للافادة منهم . وكتبالتراجم العثمانية ـ بعد الفتح ـ لاتخلو مـن القـاب : الفاسي ، المصرى ، اليمني ، الازهرى ، المكـى الحلبي ، المدني الى آخره .

نرجع لفكرة العاصمة . اننا نلاحظ ان الذيـن يجدون فى انفسهم قدرة تميزهـم عـن الاخريـن يتجهون الى العاصمة لابراز مواهبهم . من رابغ الى مكة ومن الاسكندرية الى القاهرة ومن وهران الى الجزائر العاصمة ، بل اننا نجد اليوم مـن يهاجر من بيروت او دمشق او حلب الى القاهرة لابراز موهبة قد يتصورها او هي بالفعل موجودة فيه . نفس هذا حدث عند انتقال مركز الثقـل من دمشق ومن القاهرة الى استانبول منذ عهـد سليم الاول .

ورغم ذلك ، فان اسماء عربية كثيرة سيطرت على مقدرات الدولـة العثمانية وليس فقـط فى امورها العادية . اقرب مثاللذلك محمودشوكت باشا العراقي البغدادى الذى تحرك علـى رأس جيش الحركة مـن سالونيك قائدا لجيش ضـم مصطفى كمال (اتاتورك) ليخلع ويعزل السلطان الخليفة التركي العثماني عبد الحميد الثاني من على العرش وبذلك افسح الطريق لرجال الاتحاد والترقى لحكم الدولة العثمانية .

سيطرة العربية على الثقافة

كان للعثمانيين من الثقافة الراقية والادبالاخاذ ما جعل الترجمة منها الـى اللغـات الاوروبيـة ملحوظة . (انظر تاريخ الادب التركي للدكتـور حسين مجيب المصرى ، القاهـرة ١٩٥٦) وكانت اللغة العربية سواء قبل الفتح العثماني للبـلاد العربية او بعده هي لغة الثقافة والادب والعلوم عند العثمانيين . كتبوا بها كل شيء من كتب الفقه او الفتـاوى او الديـن ، اصطلاحـات العلـوم العثمانية كانت كلها عربية.كما كتبوا بها التراجم مثل الشقائق النعمانية لطاشكبرى زاده ، وكتبوا بها التاريخ مثل جامـع الدول لمنجـم باشـى احمد دده وتاريخ (العلم الزاخر فى علوم الاوائل والاواخر) للعالم التركي جنابي ،، وكتبوا بهـا المقامات مثل مقامات عيدى .

وقد قرر العثمانيون اللغة العربية لغة اولى فى جميع المعاهد التعليمية من اولها الى آخرها ودرسوا بهاكافة العلوم.اهمل الاتراكالعثمانيون لغتهم التركية ، والفوا الكتب المدرسية وغير المدرسية بما في ذلك صرف ونحو اللغة العربية ـ بالعربية وكتبوا بها الرسائل . (انظر فهارس مخطوطات السليمانية) . واشتقوا من العربية اصطلاحات علمية كثيرة فى حين اننا الان نشتق هذه المصطلحات من اوربا .

الغريب فى الامر ، ان حركة تنقية اللغة التركية من الكلمات والمصطلحات العربية ، وقد بدأت عقب الحركة الكمالية ، تنشط هذه الايام . ان

حديث المعاصرين الاتراك عن (العمل على التخلص من سيطرة اللغة العربية على اللغة التركية) لا يخلو منه حديث في الاذاعة ولا كتب اللغة التركية في المدارس . الاتراك المحدثون يتهمون العثمانيين ويتهمون الدولة العثمانية بانها اهملت (لغتنا التركية الجميلة على حساب اللغة العربية) وبان العثمانيين اسهموا في اثراء الثقافة العربية وكان (الاولى ان يهتموا بتطوير ثقافتنا التركية) وبين الاتراك الان تدور مناقشات وتصدر كتب ما بين مدافع عن تاثير اللغة العربية والثقافة العربية في اللغة التركية وآدابها وبين مهاجم وينادي بان ينتبه الاتراك الى لغتهم الذاتية . ويعملوا على كسب اشتقاقات جديدة لها من اصول قديمة ونبذ ما في التركية من لفظ ومصطلح عربي ، وفارسي . (لاحظ جهود المجمع اللغوي التركي الذي اقيم خصيصا لهذا الغرض) .

العرب والمسلمون والعثمانيون

حتى في وقت انهيار الدولة العثمانية كان العالم العربي والعالم الاسلامي متعاطفا مع العثمانيين . اطلقوا اسماء ابطالهم على اطفالهم. عبد الحميد نسبة الى السلطان عبد الحميد الثاني ، عثمان نسبة الى الغازي عثمان باشا بطل بلونه ، انور نسبة الى انور باشا احد اعمدة الاتحاد والترقي وكذلك طلعت وزير داخلية الاتحاد والترقي والصدر الاعظم .

وفي حرب الاستقلال التركية :

١ ـ قام عثمان خوجة رئيس جمهورية بخاري في تركستان الشرقية عام ١٩١٨ بجمع اعانة للشعب التركي من شعب تركستان الشرقية بلغت خمسة ملايين جنيه ذهبا (= مائة مليون روبل) صادر منها لينين عشرة ملايين وتم ارسال التسعين مليونا الباقية الى انقرة .

٢ ـ وارسلت الهند الى انقرة اعانة مالية قدرها نصف مليون جنيه ذهبا .

٣ ـ وارسلت مصر الى انقرة ـ في عهد الخديوي عباس حلمي الثاني ٩٠٠,٠٠٠ جنيه ذهبا

وكان ذلك تعاطفا مع دولة عريقة ذات حضارة راقية خدمت التراث الانساني والاسلامي وصانت البلاد العربية من اخطار فادحة .

اود ان اضيف الى دعوة الدكتور احمد عبد الرحيم مصطفى الى اعادة « تقييم » الحكم العثماني في البلاد العربية الى فهم طبيعة العثمانيين كدولة والى معرفة حضارة العثمانيين وتشريعاتهم في البلاد العربية ، والقيام ـ ان امكن عالميا ـ بنشر الوثائق العثمانية والمخطوطات العثمانية عن العهد العثماني في البلاد العربية ، وبعدها ستكون دعوة الدكتور عبد الرحيم مصطفى امرا علميا بالغ الخطورة ، ضروريا حتى لفهم انفسنا وجذور مشاكلنا المعاصرة . ●●

استانبول ـ **محمد حرب عبد الحميد**

ان « العربي » تضيف الدعوة الى « فتح ملف الامبراطورية العثمانية » الى دعواتها السابقة الى طرح القضايا الفكرية التي يجب مناقشتها خصوصا مايتعلق بالشعب العربي والتاريخ الاسلامي .

ونحن ندعو الى المزيد . وفي هذا المجال لم يجب الاستاذ الكاتب عن اسئلة جوهرية يطرحها المثقف المعاصر عن الدولة العثمانية ، مثل : الى أى حد أخذت الامبراطورية العثمانية بالقيم والمثل الاسلامية في سياساتها نحو الرعية . والى أى حد عاملت المسلمين كشعب واحد خلافته في القسطنطينية ، او كشعوب محتلة بواسطة امبراطورية قومية .

وما هو الرد على من يقولون ان الامبراطورية العثمانية اعطت العلم « قوة » ولكنها لم تقدم فكراولا فقها ولا اجتهادا ولا فنا بمعناه الواسع . وماذا كان حظ اللغة العربية في ظل الحكم ؟